القسم الأول: تشخيص المعضلة

الفصل الأول: الظلم الذي لا يُرى

كيف يختفي القهر حين يكون مألوفًا؟

ليس أسوأ ما في الظلم أنه يحدث، بل أن يحدث وهو يبتسم. أن تُهان ثم يُقال لك إنك تبالغ. أن تُداس كرامتك ثم يدهشك الناس بسؤالهم البارد: "أين الإهانة؟" أن يُلقى عليك كلامٌ لا يُقال عادةً إلا ليُنقصك درجة، ثم تُجبر أنت على شرح بديهيات الاحترام كأنك أنت المخطئ. هذا هو الظلم الذي لا يُرى: الظلم الذي يمرّ في العلن، ولا يترك أثرًا في ضمير من صنعه؛ لأنه اعتاد عليه... أو لأن المجتمع علّمه أن يعتاد عليه.

أنا لا أتحدث هنا عن عنصرية خطاباتها فاضحة، ولا عن شتائم صريحة لا تحتاج شرحًا. أتحدث عن تلك "المنطقة الرمادية" التي تُدار فيها الإهانة بإتقان: إهانةٌ مغطاة بالمزاح، أو مبرَّرة بالوصف، أو مُسوَّغة بنبرة اعتاد الناس تمريرها دون اعتراض. وفي هذه المنطقة بالذات، يصبح الظلم أخطر؛ لأن الضحية لا تقاتل الكلمة وحدها، بل تقاتل أيضًا إنكار المحيط لمعناها.

حين يصبح النداء باللون "شينًا طبيعيًا"

تسير في الشارع رجلًا بالغًا؛ لك اسم، ولك تاريخ، ولك أهل، ولك كرامة. وفجأة يقرر شخصٌ لا يعرفك —أو يعرفك ويتعمد تجاهل اسمك— أن يناديك بما يختصر وجودك في لون: "يا أسمر"، "يا أسود". ثم أذا اعترضت تُلقى الجملة الأكثر خداعًا: "ما المشكلة؟ أنت فعلًا أسمر"!

هنا تبدأ المعركة الحقيقية. ليست مع "الكلمة" فقط، بل مع العقل الذي يتظاهر بأنه لا يرى خلفها شيئًا. نعم، أنا أسمر؛ كما أن غيري طويل أو قصير، أصلع أو ممتلئ، أبيض أو قمحِي. لكن السؤال الذي يتهربون منه ليس: "هل أنت أسمر؟" بل: لماذا اخترت هذه الصفة بالذات لتناديني؟ ولماذا اخترتها في مقام لا يستدعيها، وبنبرة لا تقصد إلا وضعَك فوقي ووضعِي تحتك؟

لو كان الأمر وصفًا بريئًا بحق، لكان منطق الوصف سيُطبَّق على الجميع: لماذا لا ينادي أحدهم الآخر كل مرة "يا أصلع"، "يا قصير"، "يا بدين"، "يا أعور"؟ لماذا تُنتقى صفة

اللون تحديدًا لتكون بطاقة النداء السريعة، المختصرة، الجاهزة؟ لأنها ليست صفة فقط... إنها "تصنيف". تصنيفٌ يضعك في خانة، ويضع المتكلم في خانة أخرى.

ولهذا جاء التحذير القرآني من منطق اللمز والنبز بالألقاب، لأنه يجرح الإنسان في تعريفه بنفسه ويحوّل الصفات إلى أسلحة: ﴿**وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**﴾ (سورة الحجرات، الآية ١١).

تجربة تكشف الوجه المخفي للكلمة

مرة ناداني شخص: "يا أسمر". لم أرد إشعال حرب، أردت فقط اختبار عدالة ميزانه. فقلت له بالطريقة نفسها: "يا أزرق". لم يضحك. لم يقل: "ما المشكلة؟ أنا فعلًا أزرق العينين مثلًا!" بل نظر إليّ بغضب واستنكار: "ما الذي تقصده؟ لماذا تقول لي ذلك؟"

وهنا تنكشف الحقيقة بلا خطب ولا محاضرات: هو يفهم تمامًا أن النداء بلونٍ ما قد يكون إهانة... لكنه يفهمها حين يكون اللون المذكور "لونه". أما حين يكون اللون "لوني"، يصبح الأمر "طبيعيًا"، "عاديًا"، "مزاحًا". هذه ليست سذاجة؛ إنها ازدواجية. ازدواجية تُدرّب المجتمع على أن يرى مشاعر بعض الناس "حساسية زائدة"، بينما يرى مشاعر الآخرين "حقًا مشروعًا."

والنتيجة أن العدسة الاجتماعية تضبط الصورة مسبقًا: إن غضبتَ فأنت حساس، إن سكتَّ فأنت راضٍ، إن دافعتَ فأنت عدواني. وفي كل الحالات، تُحمَّل أنت وزر المعنى، بينما يُعفى صاحب الكلمة من مسؤوليته.

الإهانة التي تُقال وتُمحى في اللحظة نفسها

هناك ألفاظ تُلقى على أصحاب البشرة الداكنة لا تُقال عادةً كأنها وصفٌ محايد، بل كأنها "مسمار" يُدق في الكرامة: "عبد"، "كوشي"، "شوكولاتة"... وغيرها من كلمات قد تبدو خفيفة لبعضهم، لكنها تحمل تاريخًا من الاستعلاء، وتعمل عملها بصمت.

والأدهى أن كثيرًا ممن يقولونها لا يشعرون أنه ارتكب خطأ، بل يتصرف كأنك أنت من أدخل "المشكلة" إلى المكان حين اعترضت. وهنا يولد السؤال القاسي: إذا لم يرَ المجتمع أصل الإهانة، فكيف سيفهم ردّك عليها؟

في ميزان الدين والأخلاق، المشكلة ليست في اختلاف الألوان، بل في "النظر إلى الإنسان من علٍ". وهذا المعنى يفضحه الحديث الصحيح": **إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** ". (صحيح مسلم، ٢٥٦٤) فحين تُختزل قيمة الإنسان في مظهره، تكون قد هدمت معيار الكرامة من أساسه.

حين تتحول "الجماعة" إلى محكمة جاهزة

أنا حين أقول "المجتمع" لا أعمّم على الجميع، ولا أنكر خيرًا رأيته في كثيرين. لكنني رأيت مرارًا—وبشكل يتكرر حتى يصير قانونًا غير مكتوب—أن موقفًا يبدأ بشخص واحد ثم يتحول في ثوانٍ إلى "جبهة" كاملة.

يجلس أسمر بين ثلاثة أو أربعة من ذوي البشرة الفاتحة. ينطق أحدهم بكلمة تُخزّن الإهانة في نبرتها. فإذا ردّ الأسمر، لم يعد الخلاف بين اثنين؛ بل يصبح الاتهام: "هو يهاجمنا نحن". هكذا تُصنع التهمة: الذي بدأ بالإهانة يصبح فردًا يمكن الدفاع عنه، بينما الذي ردّ يصبح خطرًا على الجماعة كلها.

وهذا هو التعريف العملي للظلم غير المرئي: أن تكون وحدك، لا لأنك أخطأت، بل لأن لونك جعلك "الاستثناء" الجاهز، والهدف الأسهل للتأويل وسوء الظن.

التحكيم الذي يزيد الطين قذارة

وحين يتدخل "حكم" ليفصل—وغالبًا ما يكون من بيئة الأغلبية—تتوقع حدًا أدنى من الإنصاف: "يا فلان، هذا لا يُقال." اعترافًا بسيطًا بالجرح. لكن المفارقة التي تقتل ما تبقى من الثقة أن يكون الحكم نفسه حاملًا للبنية التي صنعت الإهانة.

فتسمع جملة تُقال كأنها حكمة، بينما هي في الواقع ستار لاستمرار القهر: "كلنا عبيد لله." قد يظن قائلها أنه أغلق الملف، لكنه في الحقيقة فتحه على مصراعيه؛ لأن استخدام العبارة هنا لا يأتي لتصحيح الخطأ، بل لتخفيفه وتبريد الألم وإبلاغ الضحية ضمنيًا أن الكلمة لا تستحق غضبًا.

إن العدل في أصله ليس "وعظًا عامًا" يُلقى فوق الجرح، بل اعترافٌ بالفعل وإيقافٌ للأذى. ولهذا جعل القرآن معيار الاجتماع الإنساني قائمًا على العدل لا على "الاستعلاء :"

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ (سورة النحل، الآية ٩٠).

لماذا لا يُرى هذا الظلم؟

لأن الظلم حين يصبح مألوفًا يفقد شكله الفاضح. يتحول إلى نكتة، إلى تعبير دارج، إلى "مزحة شباب"، إلى "لا تقف عند الكلمة". والمجتمع الذي اعتاد هذا النوع من "المزاح" يفعل شيئًا خطيرًا: يجرّم حساسية الضحية بدل أن يهذّب لسان الجاني.

والأخطر أن الاعتياد لا يعني البراءة؛ الاعتياد يعني أن الجرح يتكرر حتى يصبح جزءًا من الهواء. ثم تُجبر الضحية أن تتنفس الإهانة يوميًا، وتُتَّهَم أنها "تختنق بلا سبب."

وهنا يتضح معنى مهم: النصيحة الأخلاقية ليست أن تطلب من المظلوم أن يصبر على الإهانة، بل أن تمنع الإهانة أصلًا. وهذا معنى قريب من الحديث المشهور" :

انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا ".أي تمنعه من الظلم إن كان ظالمًا وتعينه إن كان مظلومًا

(صحيح البخاري، ٢٤٤٤).

هذا الفصل لا يسجّل واقعة معزولة، ولا يحكي قصة فردية انتهت بانتهاء الموقف، بل يكشف نمطًا يتكرر لأنه لا يُسمّى باسمه. ظلمٌ يعيش في اللغة اليومية، ويتخفّى في المزاح، ويُمرَّر باسم "العادي"، حتى يفقد المجتمع قدرته على رؤيته أصلًا. وحين يفقد الظلم شكله الفاضح، لا يعود مؤلمًا لمن يمارسه، بل فقط لمن يقع عليه.

لكن القهر الذي لا يُرى لا يختفي، بل يتراكم. يُخزَّن في الصمت، ويتكثف في الصدر، وينتظر لحظة لا يُخطَّط لها دائمًا. وعند تلك اللحظة، يتغيّر السؤال فجأة. لا يعود السؤال: ماذا قيل؟ ولا: كيف قيل؟ بل يصبح السؤال: لماذا غضب؟ ولماذا الآن؟

وكأن الصمت السابق كان رضا، لا احتجازًا.

وكأن النار خرجت بلا شرر، ولا رماد.

" هذا هو الظلم الذي لا يُرى: الظلم الذي يمرّ في العلن، ولا يترك أثرًا في ضمير من صنعه."